المضمون الثوري في شعر الدكتور صالح الخرفي

د. محمد ابن سمينة

جامعة بن يوسف بن خدة

- الجزائر -

تود هذه المقاربة أن تتلمس طريقها نحو المضمون الثوري في شعر الأستاذ الدكتور صالح الخرفي رحمه الله (1932 - 1998)، وتتصل هذه الكلمة من هذه الناحية بروضة من رياض الأدب الجزائري الحديث ، هاتيك الرياض التي ما إن يدنو من رباها المتلقي حتى تغمر صدره نشوة الاعتزاز بما يعبق من بين أفنانها من عطر الأمجاد، وبما تزكو به ظلالها من سني الجهاد ، ومن جسيم التضحيات ، تأصيلا للقيم، ومنافحة عن المقومات، وذودا عن الحقوق ، واسترجاعا للعزة والسيادة والأصالة ...

ويمكن أن يدور النقاش لإجلاء ذلك في هذه المحاور:

أولا - إضاءات عن إسهامات الخرفي في معترك الحياة العملية والعلمية : كان الدكتور الشاعر الخرفي أحد العاملين الجادين في مختلف ميادين الحياة الوطنية : مجاهدا مخلصا، وأديبا ملتزما ، وباحثا محققا ، وأستاذا جامعيا ... خدم القيم ، وخدم الوطن ، وخدم الأمة ، فكان منه في كل هذه الميادين العطاء ، وكان منه السخاء، وكان منه الوفاء، ذودا عن الوطن والأمة، ودفعا لمسيرة حركتهما على طريق الانعتاق والتحرر والتقدم.

1– من الجهاد الأكبر إلى الجهاد الأصغر : كان الخرفي حاضرا بإخلاص وقوة في مسيرة الثورة طوال مراحل الكفاح المسلّح.

واستمر من بعد ، في ذلك العطاء في مرحلة بناء الدولة الجزائرية المستقلة، إلى أن لقي ربّه راضيا مرضيّا، وكان ذلك في مواقف كثيرة وبأماكن عديدة : بالجزائر وتونس والقاهرة ودمشق، وغيرها من البلاد العربية.

كان أحد الباحثين البارزين في الأدب الجزائري الحديث، تدريسا وتوجيها وتأطيرا ، فكان أستاذ كرسي الأدب الجزائري الحديث بدائرة اللغة العربية وآدابها - جامعة الجزائر (1964 - 1973) . وكان أحد الأدباء الجزائريين الذين كتبوا في الصناعتين: النثر والشعر، فكان كاتبا مجيدا ، وكان شاعرا مطبوعا.

2 – آثاره الأدبية : بدأ الخرفي جهاده في ميدان الكتابة منذ أن كان طالبا بتونس، ثم بالقاهرة، ثم بالجزائر، وتتصل إسهاماته في هذا المضمار بعدة قضايا اجتماعية ووطنية وإقليمية، وتتوزع أعماله في ميدان النثر إلى قسمين اثنين :

1 - دراسات أكاديمية ، ومن بينها :

أ - شعر المقاومة الجزائرية (رسالة ماجستير) جامعة القاهرة 1966

ب - الشعر الجزائري الحديث (دكتوراه الدولة) من جامعة القاهرة 1970

2 - أبحاث عامة من بينها:

1 - شعراء من الجزائر - القاهرة 1969 - 2 - صفحات من الجزائر - الجزائر 1974 - 3 - الجزائر والأصالة الثورية - الجزائر 1978 - 4 - في ذكرى الأمير عبد القادر - الجزائر 1984 – 5 - في رحاب المغرب العربي - دار الغرب الإسلامي بيروت 1985 – 6 - الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو في الحجاز – دار الغرب الإسلامي بيروت 1991، وغيرها ...)

أما آثاره الشعرية فتتمثل في مجموعات شعرية من بينها:

1– صرخة الجزائر الثائرة – الدوحة - قطر 1958 –2 - أطلس المعجزات - الجزائر 1967 - 3 - أنت ليلاي - الجزائر1974 – 4 - من أعماق الصحراء – دار الغرب الإسلامي 1991 ، وغيرها .)

ثانيا - المضمون الثوري في شعره : كان الشعب الجزائري قد فجّر ثورته المجيدة في الفاتح من نوفمبر 1954، فزلزل بركانها الأرض من تحت أقدام الطغاة الغاصبين، وقد تميزت بجملة من الأهداف من أهمها أنها كانت :

1 – جهاد وانتماء : تنشد تحرير الشعب الجزائري من ظلم الظالمين، وتنحو في انتماءاتها ومقاصدها منحى الفاتحين الأوّلين، وتستنير في جهادها بعاطر سيّر هؤلاء، وصادق فعالهم، وتصنع في ساحات الوغى، في السهول وفي الهضاب، في الصحاري وفي الجبال، وفوق كل شبر من أرض الجزائر مثلما صنع أولئك الفاتحون الأولون من بطولات ومآثر في (حطّين)، و(اليرموك)،

و(القادسية)، و(عين جالوت)، وفي (القدس)، وغيرها من بلاد إفريقيا وآسيا وغيرهما من أقطار المعمورة.

أقسمت بالصحراء مهدا لانبثاق

الوحي نقاها (حراء) وطهرا

سنعيد ذكرى (القادسية) للنهى

تهوي (بكسرى) أو تطيح (بقيصرا)

سنشنها (عمرية) (سعدية)

سنثير رَملتها قتاما أغبرا [1]

وقد كانت هذه الثورة من حيث منهجها ومقاصدها تستنير بخطى الفاتحين ، وكانت في الوقت ذاته عربية أصيلة بما ينبض به قلوب رجالها من إيمان ونخوة، وبما تمتلئ به صدورهم من شرف وشجاعة، وبما يطبع مواقفهم من شمم وشهامة:

يا ثورة عربية الوثبات يحدوها الشمم يا ثورة عربية النبضات في تلك القمم

الكل للهيجاء سائر فاستقبلينا يا جزائر [2]

2 – مكانة الجبل في الثورة الجزائرية : كانت ثورة نوفمبر المظفرة بدرا ساطعا وقمرا منيرا في ليل الجزائر... فقد انبلج فجر يومها، وأشرقت شمس نهارها في مختلف أرجاء الوطن، فكانت كأعظم ما تكون منعة وتحديا وعطاء على رؤوس قمم الجبال،

وعلى ذراها الشاهقات الشامخات، وقد كان لهذه الجبال مكانة خاصة في قلوب الجزائريين، وفي سجل أدبيات حركات الكفاح الوطني، وفي روائع ديوان الثورة الجزائرية، فقد كان الشعب الجزائري منذ زمن طويل من تاريخ كفاحه يتطلع إلى هاتيك الجبال، يهتف باسمها، ويرسم الطريق أمام كتائب المجاهدين إلى ذراها، ويرهص بانبلاج فجر الثورة من على قممها ورباها.

لقد حاول أحد الجزائريين من عموم المناضلين وهو السيد (حسن بلكريد)، أن يعبر عن شيء من هذه الأماني، فخانته الوسيلة وخانه الأداء، فلجأ إلى الاتكاء على أحد أعمال الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة ، وهو نشيده (يا بلادي) الذي مطلعه:

يا بلادي يا بلادي أنا لا أهوى سواك
قد سلا الدنيا فؤادي وتفانى في هواك [3]

ثم بنى ذاك الشاعر الشعبي على هيكل هذا النشيد بعض الأبيات (أربعة فقط) من الشعر الشعبي، فكان من ذلك عمل شعري بسيط بعنوان (من جبالنا)[4]

يمجد هذا العمل الجبال ويرهص بانطلاق الثورة من بين ثناياها، ويؤكد على أن تحرير الجزائر سيكون ثمرة من ثمار بطولات أبطالها .. ويتحقق الحلم، وتندلع الثورة من هنالك، من تلك الذرى المنيعة والقمم الشاهقة ..

وكانت من هنالك البداية، بداية قصة الثورة الماجدة ، وتمثل تلك الأبيات الأربعة التي أضافها ذاك الشاعر الشعبي إلى نشيد محمد العيد مطلع ذاك النشيد ، وهي:

1 - من جبالنا طلع صوت الأحرا ر ينادينا (كذا) للاستقلال

2 - ينادينا للاستقلال لاستقلال وطنينا(كذا)

3 - تاضحيتونا (كذا) للوطن خير من الحياة

4 - أوضح (كذا) بيحياتي (كذا) وبمال (كذا) عليه

وأما بقية النشيد فهي مجموعة أبيات النشيد السالف الذكر (يا بلادي) لمحمد العيد وهذا نصه :

1 - يابلادي يابلادي أنا لا أهوى سواك

2 – قد سلا الدنيا فؤادي وتفانى في هواك

3 – كل يوم فيك ينمو حبه مثل النبات

4 – ياترى يأتيك يوم تزدهي فيه الحياة

5 – نحن بالأنفس نفدي كل جزء من ثراك

6 – إننا أشبال أسد فاصرفينا لعدا ك

7 – لك في التاريخ ركن مشرق فوق السماك

8 – لك في المنظر حسن ظل يغري ببهاك

9 – نحن سور بك دائر وجبال راسيات

10 – نحن أبناء الجزائر أهل عزم وثبا ت[5].

وقد كانت هذه الأهزوجة نشيدا وطنيا وهتافا جهاديا يتردد على ألسنة أجيال من أبناء حركة الكفاح الوطني منذ البداية الفاعلة لهذه الحركة في العشرينيات من القرن العشرين، وإلى ما يشاء الله مستقبلا..

وقد استمرت هذه المكانة لهذا النشيد في قلوب الجزائريين وفي سجل تاريخ جهادهم، وستستمر كذلك - بإذن الله - إلى ما يشاء الله .

وكان للجبال من بعد، مكانتها البارزة في معظم أعمال الشعراء الجزائريين الذين مهدوا للثورة وأرهصوا بها، ثم عاصروا أحداثها وواكبوا وقائعها وخلدوا مآثرها.

ويصادفنا في مقدمة هؤلاء محمد العيد آل خليفة الذي دعا منذ وقت مبكر إلى الثورة وأرهص بها في مواطن كثيرة من شعره [6] ، وكان من بين ذلك وقوفه ذات يوم خميس مبارك عزيز: السادس عشر من شهر صفر الخير سنة 1366 هـ الموافق لشهر(ديسمبر) عام 1947م وذلك على أحد سفوح جبل الأوراس الأشم الرابض على جنبات مدينة (القنطرة) ولاية (بسكرة) يحرسها ويحرس غيرها من أراضي الوطن، ويتحدى ويتوعد المعتدين الغاصبين، وذلك في مناسبة تدشين افتتاح (مدرسة الهدى) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وكان الشاعر

يلقي يومئذ قصيدته (فتح جديد). في جمع غفير من المواطنين، و(الأوراس) من حول الشاعر وجمهوره يشهد الحدث ، ويكتب التاريخ ، ويطل بجناحيه على المكان، يبارك المشروع الذي يعتبر هو وأمثاله من اللبنات الأساسية في صرح الثورة، وينفخ (الأوراس) في الشعب روح الثورة على المعتدين، تلك الثورة التي بدأت أنوارها تتراءى في الأفق البعيد القريب من على قمم (الأوراس) الأشم، تتراءى لأولئك الذين سهروا وجاهدوا وضحوا من أجل أن يضيء مشعل تلك الثورة ليل الجزائر.

ويرفع الشاعر محمد العيد في هذه الأجواء صوته بالهتاف يحي (الأوراس) الذي يتحدى المعتدين، والذي يفتح ذراعيه ليحتضن أبناءه الثائرين ويفسح المكان واسعا لإيواء كتائب أولئك المجاهدين الصاعدين يوما إلى ذراه، الذين سيعانقون قممه يوم التاريخ الآتي، يوم الحلم الكبير، يوم ميلاد ثورة الجزائر الكبرى، ليلة الفاتح من نوفمبر 1954.

ويحي الشاعر في الوقت ذاته شعبه المجاهد الذي يأبى الضيم، ويصر على المقاومة، ويتحدى المعتدين، ويتهيأ لكتابة الحروف الأولى من قصة الثورة المجيدة على الذرى الشاهقات الشامخات يقول الشاعر:

نحن الجبال بنو الجبا ل صدى الجبال بنا حدا
من سامنا بإذاية فعلى الجبال قد اعتدى
ومن استهان بنا استها ن بها فحل به الردى
لا خوف من ظلم الطري ق فقد جلونا المقصدا [7]

وعلى هذا الطريق يكتب الشاعر مفدي زكرياء مجموعة من أناشيده الثورية، يمجد فيها الجبال: ذراها وقممها، غاباتها وكهوفها، وتأتي في مقدمة هذه الأعمال أنشودته التاريخية:

قسما بالنازلات الماحقات
والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات
في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فأشهدوا [8]

ويكتب مفدي زكرياء مرة أخرى، وبلغة بسيطة معبرة ، يقترب فيها من لغة عامة الشعب نشيدا آخر، على لسان أفراد جيش التحرير الوطني، فيفتتحه بالحديث عن الجبال:

هذي دمانا الغالية دفاقة
وعلى الجبال أعلامنا خفاقة

وللجهاد أرواحنا سباقة

جيش التحرير احنا مناش فلاقة [9]

وينظم الشاعر المجاهد محمد الشبوكي أنشودته التاريخية ، أنشودة الجبال (جزائرنا)، فكانت هذه الأنشودة هتافا خالدا على ألسنة كل الجزائريين شعبا وجيشا، صغارا وكبارا ، في الجبال، وفي الشعاب، وفي الوديان، وكانت الجبال فيها الفاتحة، واللازمة، والخاتمة:

سلاما سلاما جبال البلاد

فأنت القلاع لنا والعماد

وفيك عقدنا لواء الجهاد

ومنك زحفنا على الغاصبين

ويختار الشاعر صالح خباشة لباكورة أعماله الشعرية اسم (الروابي الحمر)، وفي هذا الاسم – كما هو واضح - ما فيه، من معاني الإيحاء والرمز، افتخارا بما يصنعه المجاهدون على ذرى الجبال من مآثر وبطولات، وما يسخون به فداء للوطن العزيز من تضحيات جسام ودماء زاكيات.

ويقف الشاعر الخرفي من جهته عند هذه الجبال وقفات أطول وأكمل وأكثر تفصيلا ... يصعد إلى قممها، يعانق ذراها، يعيش مع أبطالها ، في غاباتها ومغاراتها وكهوفها، يحدو زحف

كتائبهم، يشهد ملاحمهم، يسجل مفاخرهم ، يواكب انتصاراتهم ، ويترحم على قوافل الشهداء الأبرار.

ويأخذ الجبل مكانا بارزا في أعماله ابتداء من مجموعته الأولى (أطلس المعجزات)، وإن المتلقي وهو يتصفح هذه المجموعة تطالعه من عنوانها كلمة (الأطلس) ترصع جبينها ، وتطلق هذه اللفظة على تلكما السلسلتين الكبيرتين من الجبال التي تكون حزاما لا تتمنطق به الجزائر فحسب، وإنما تتمنطق به سائر بلاد المغرب العربي (من شرقها إلى غربها) ، وتسمى السلسلة الأولى في الجزائر (الأطلس التلي) والثانية (الأطلس الصحراوي). ويحاذي الأطلس التلي شمالا السهول الساحلية إلى الهضاب العليا جنوبا، ويربض الأطلس الصحراوي موازيا هذه الهضاب إلى مشارف الواحات وأراضي الصحراء جنوبا.

وتتربع في أعماق الصحراء سلسلة (جبال الهقار) التاريخية.

وتأتي جبال (الأوراس) الشماء الفاتحة الميمونة في باكورة الأعمال الشعرية للخريف، (أوراس) تلك التي شهدت الثورة العملاقة على ذراها يوم ميلادها، وسيسترد الوطن – بإذن الله - ، ثم بملاحم أبطالها – أمجاده وعزته:

مجد البلاد تشيده (أوراس) والنار في نهج العليا نبراس[10]

ولم تلبث هذه الثورة أن امتدت شعلتها من قمم الأوراس إلى قمم

أخرى غيرها من جبال الجزائر، فشمل ضياء هذه الشعلة جبال الأطلس التلي وجبال الأطلس الصحراوي، وغيرها ، وغيرها ..

ويتوجه الشاعر بالتحية والإجلال والإكبار إلى أسود ذرى الأطلس وهم يزحفون من تلك القمم على فلول الغاصبين، ويكتبون بدمائهم الكلمات الأولى من قصة الجهاد الوطني:

أيها الزاحفون زحف المنايا
في ذرى (الأطلس) الأشم المصابر
يانسور الجبال حدق منكم
رابض في الثرى، وحلق كاسر
غاض نبع الحياة، فالحر منكم
وارد يشقي الردى، غير صادر
أنتم المجد والخلود وأنتم
مهرجان انطلاقتنا، والمنابر [11]

وتمضي الأيام ملآى بالشدائد، وتمضي الليالي حبلى بالإرهاب والمداهمات، وتمضي السنون أنهارا من الدماء وجبالا من الأشلاء، وبالرغم من ذلك كله يزداد قبس الثورة توقدا، وتزداد ميادين معاركها توسعا، ويزداد الشعب الجزائري ثباتا وإصرارا على مواصلة جهاده على دربها حتى يمسي التراب الوطني كله مسرحا لوقائعها: صحاري وهضابا ، روابي وتلالا، سهولا وجبالا، بوادي وأريافا، مدنا وقرى، ويتعالى الهتاف في

سماء كل هذه الأماكن بنداء (اللّه أكبر) وتظل الألسنة تلهج بهذه العبارة (اللّه أكبر على كل معتد متجبر) :

اللّه أكبر، جل من خلق الجبال

وشق فيها من دمانا أنهرا

اللّه أكبر، سوف تبقى حرة

عربية، حكم الرصاص وقدرا

اللّه أكبر، للدما، للنار في

كبد السماء، اللّه أكبر، للذرا [12]

3 – العمليات الفدائية في المدن : وتنتقل شرارة الثورة من الجبال والبوادي والأرياف إلى المدن على أيدي تنظيمات الفدائيين أولئك الذين راحوا يضربون أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء، وهم يطاردون المعتدين من شارع إلى شارع، ومن ميدان إلى آخر، ويلحقون بهم أشد الضربات وأفدح الخسائر، ويقف شاعرنا عند واحدة من هذه الوقائع التي لا تحصى عددا في جزائر الثورة، تلك التي شهد مسرحها (شارع مشلي) (مراد ديدوش حاليا) هذا الشارع الذي يقع في وسط العاصمة، وهو من أكبر شوارعها عمرانا، ومن أكثرها اكتظاظا بالمارة، وكان الفدائيون قد استهدفوا في هذه الحادثة المدعو (فروجي) وهو أحد كبار غلاة المستوطنين (المستدمرين)، ولا أقول - كما يقول بعضنا من دون تدبر - (معمرين!)، وما هم في الواقع (بمعمرين!)، وما

أبعدهم عن ذلك ! وإنما هم أنانيون ونفعيون ، وعنصريون ومتعصبون..

وقد نجح الفدائيون في عمليتهم هذه في وضح النهار وفي ذلك المكان، فأردوا ذاك العدو قتيلا، بالرغم من أن المحتلين كانوا في مثل هذا الزمان وهذا المكان يضاعفون من جندهم، ويشددون رقابتهم وحراستهم، ولكن ذلك ما كان ليحميهم من هجمات الفدائيين البواسل.

وكان لهذه الحادثة ما كان لها من أثر كبير على معنويات قوات العدو، ليس لما لحقهم بها من خسائر فحسب ، وإنما لما أصابهم من جرائها من خوف وهلع ورعب ..، مما قد يلحق بهم من مثيلاتها في أية لحظة مستقبلا:

ثائر لم يعد رهين جبال

بل حداه إلى العواصم بأس

إنه الظل ليس يخلص منه

أينما كان أجنبي أخس

هو في مسرح البطولة جن

وهو في عالم الحقيقة إنس

(فروجي) لم ينج في شارع (مشلي) من لظاه ولا قيادة (مسو) [13]

ومضى الشعب الجزائري جميعه: شبابه وشيوخه، رجاله ونساؤه، يباركون الثورة ويلتفون حولها يذكون نارها في هيكل الاحتلال، ويلهبون أوارها في فلوله.

4 - دور المرأة الجزائرية في الجهاد : وكانت المرأة الجزائرية قد أخذت مكانها إلى جانب أخيها الرجل في ميادين هذه الثورة: مجاهدة في الجبال، مسبلة في البوادي، فدائية في المدن، .. وهناك الجميلات.. وهناك الحسيبات والفاطمات والفضيلات ، هنالك الميئات منهن، بل الآلاف من الجميلات ومن الحسيبات، فهناك ألف جميلة، وألف حسيبة،وألف فاطمة وألف فضيلة، وألف ألف جزائرية فدائية :

وبنو الجزائر، لم تنل منهم مئات
الطائرات، ولا ثناهم مدفع
وبناتها مثل اللبؤات اندفا عا،
ما لهن عن الكفاح ترفع
ويمسن مثل عرائس بين الرصا ص
و بالخراطيش صدرهن مرصع
يرسلن فوق جماجم الأعداء زغاردة
صداها في البلاد يرجع
هن العيون على جيوش المعتدي
ولثورة الأحرار هن الأضلع [14]

5 - جرائم غزاة وصمود شعب : وقد حاولت فرنسا عبثا، وبكل ما ارتكبته من جرائم، وبكل ما اقترفته ضد الشعب الجزائري - أطفالا وأيامى، عجائز وشيوخا - من قمع وإرهاب، وترويع وتعذيب، وتنكيل وتشريد ... بالرغم من كل ذلك، فإن فرنسا لم تستطع أن تنال من عزائم أبناء الجزائر الأشداء، ولم تستطع أن تفت في عضدهم أو تثنيهم عن مواصلة جهادهم ... واستمر الشعب البطل ينفخ من روحه في بركان ثورته ويسخو بدمائه إلهابا لنارها وإعلاء لكلمتها ... واستمر هذا الزحف شديدا، وهذا الإعصار قويا مرعبا حتى أتى هذا وذاك على حصون المعتدين وأفنى فلولهم، وأصبح المعتدون من بعد ذلك أثرا بعد عين ...

ويا معز ويا مذل، تعز اللهم من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، سبحانك اللهم ربنا ما أعظم شأنك! وما أجلّ قدرتك! وما أجمل عدلك !

يا تجار الدماء، يا بؤرة اليأ س،

ويا نكسة الدخيل الحقود

إن للشعب غضبة فاحذروها

إن للشعب زمجرات الرعود

يا يدا لطخت دما ودموعا

إن للشعب قبضة من حديد

لن يضيع الدم الزكي هباء

لا ولا عهدنا لروح الشهيد [15]

ويستمر شاعرنا الخرّيف كسائر إخوانه الشعراء في وقوفه إلى جانب شعبه وهو يذكي نار الثورة، يجود بالمهج ويسخو بالدماء، يستمر الشاعر في المقدمة واقفا إلى جانب شعبه ليخفف عنه ما يلقى على أيدي (دعاة الحرية!) من أشكال الإرهاب! وما يعاني على أيدي هؤلاء (أنصار حقوق الإنسان!) من ألوان العذاب والهوان !

6 – الثقة في وعد الله بالنصر : ويمضي الشاعر يضمد جراحات شعبه، وينزع أسباب اليأس من قلوب بعض أبنائه، ويزرع بذور الأمل في نفوسهم، يلوّح بتباشير النصر ورايات الحرية، مؤكدا على قرب انجلاء ذاك الليل وانبلاج خيوط الفجر من بين ظلام زنزانات المعذبين وضيق محتشدات المشردين، وآلام أنات المصابين، ومصارع الشهداء الأكرمين.

يخاطب الشاعر وطنه بهذه المعاني وكلّه أمل، وكله ثقة في وعد الله بالنصر لعباده المؤمنين المجاهدين :

لا تبتئس وطني ولا تيأس فإن

النصر يقصيه الأسى والياس

بل فابتهج، وطني وابشر بالفلاح

إذا بنشئك (غصت) الأحباس

فهياكل الشهداء للمجد الأثيال

معارج وله الرمام أساس

ولسوف ينسي النصر في مستقبل

الأيام، ما جنت الحروب وياسو (16)

وتمضي فيالق المجاهدين على هذا الطريق إلى غايتها، لتفوز بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة. ويتسابق المجاهدون على هذا الطريق إلى العالم الآخر، العالم العلوي، العالم الخالد، فرحين مستبشرين بما يلقون عند ربهم هناك من نعيم مقيم رفقة الصّديقين والنبييّن والمرسلين، وحسن أولئك رفيقا.

وتعبد مصارع الشهداء الطريق، أمام شعبهم، وتضيئ دماؤهم الدروب له، وينبثق من ببين ذلك خيوط فجر الحريّة، فتزيح أنواره غيوم الظلم، وتذيب حرارة شمسه حجب الظلام، وتتعالى الهتافات، وترتفع الرّايات، ملوحة بالنصر وبالبشائر لشعب الجزائر، ويكون النهار الذي لن يعقبه – بإذن اللّه – بعد هذا التاريخ ليل، ولا ظلم ، ا ظلام، ولا ذل، ولا هوان:

وكأني بالتربة الحمراء من دم الشهيد رفلت عليها بالفخار مواكب العهد الجديد

والراية الخضراء تخفق بالبشائر

فيضمها بالسعد أحرار الجزائر

والصاعدون إلى الجبال

عادوا إلينا بالفخار

ذهبت بهم نوب الليل

فردهم نور النهار [17]

7 - ابتهالات الحرية والاستقلال : وكان ذلك اليوم الخامس من جويلية 1962، يوما عظيما في تاريخ الجزائر الحديث، فقد استعاد الشعب الجزائري في ذاك اليوم حرّيته وسيادته، عزته وأصالته، كما استعاد في هذا اليوم (مسجد كتشاوة) ذاك المعلم التاريخي السجين منذ الاحتلال طهره وقدسيته، فارتفع الآذان من على منارته، كما كان العهد به من قبل قرن وثلث القرن ويزيد، فارتفعت من فوق مآذنه كلمة (اللّه أكبر) ودوت بها جنباته... وتليت من على منبره الآيات الكريمات، والأحاديث الشريفات. والمواعظ والتوجيهات، وقامت في رحابه الصلوات ، وتعالت بين عرصاته الدّعوات ، بالبشائر وبدوام النصر والأمن والتقدم لشعب الجزائر:

يوم يعتزّ في التراب الرفاة

بدماء بها أتتنا الحياة

وعلى روحها تقام الصلاة

في رحاب (كتشاوة) والدعوات

كان ناقوسه نذير مخاطر

فاعتلاه مؤذن للبشائر [18]

ثالثا - الخلاصة : يمكن أن يستخلص المرء ممّا تقدم أن حاضر الأمة ومستقبلها، مكانتها وكلمتها بين الأمم، إنّما سيكون ذلك بقدر ما يكون في صدرها وفي سلوكها - بعد إرادة اللّه وتوفيقه - من صدق الإيمان وصحة العلم، وقوة الإرادة، وعلوّ الهمة، وصالح الأعمال، وكرم الخصال...

ويمكن القول أنّه ما من عامل هبط بالأمة إلى ما هي عليه في حاضرها من درك الضعف والتشرذم والتخلف والهوان في معظم وجوه حياتها ، غير ذاك الذي تردت إليه من ضعف حظها من تلك الكليات المعنوية والمادية التي تمثل السجل الأمين الذي سطرت على صفحاته أمجاد تاريخها والأساس القوي المتين الذي قامت على دعائمه حضارتها بالأمس، وكان لها بذلك ما كان لها في ماضيها من عظمة وسؤدد وأمجاد .. ولن يكون لأمتنا اليوم أو غدا شيء من ذلك، إلا إذا هي أخذت بصدق بمنهج تلك الكليات ، واستنارت بحب بتوجيهاتها، واهتدت باعتزاز بإرشاداتها، إذ « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » [19]

وإن دروس التاريخ تشهد وتسجل ، وإن شواهد الواقع تقر وتؤكد ، أن أمتنا لن تستطيع أن تسترد ذاك الذي كان لها من ذلك الدور التاريخي المشهود وتلك المكانة الرفيعة بين الأمم

العظيمة ، إلا إذا اهتدت بهدي الصراط المستقيم، وانتهجت الطريق القويم واعتصمت بعرى التآخي والوئام، والوحدة والتعاون التي لا تنفصم ، واجتنبت ما يفرق من السبل، واستنارت بالسنن، وأقبلت على الأسباب، وأخذت بحظها من خير هذا الزاد .. وتلك سنة الله في ملكوته.. وفي سائر خلقه .. ولن تجد لسنة اللّه تبديلا.. ولن تجد لسنة اللّه تحويلا .

الهوامش :

1-2– ينظر أطلس المعجزات ص: 178 - 200

3 - ينظر العيديات المجهولة ص: 231– صنعة الكاتب مطبعة رغاية الجزائر 2003.

4 - ينظر محمد الصالح رمضان : مجلة الثقافة ع:88 سبتمبر 1985 ص:266

5 - ينظر العيديات المجهولة مصدر سابق ص : 231.

6 - ينظر ديوانه ص: 135/420/417 – مكتبة البعث – قسنطينة 1967.

7 – ينظر المصدر السابق ص: 181.

8 - ينظر ديوانه اللهب المقدس ص: 71 – دار الكتب بيروت 1961.

9 - ينظر: المصدر السابق ص: 79.

10 – 11 - ينظر أطلس المعجزات ص: 11. - 237

12 – 13 – المصدر السابق ص:180 - 57

14 - 15 - " " ص 207

16 - " " ص 14 – 15

17 18 - " " ص :201 - 116

19 - ينسب هذا القول إلى الإمام أنس بن مالك رضي الله عنه.